

مقالتان للاستاذ الامام (١)

(مقتبستان من دروس السيد جمال الدين وقد نشرها في العدد ٩٥ من جريدة مصر التي كانت تصدر بالاسكندرية في ١٥ جاد الاولى سنة ١٢٩٦)

المقالة الأولى - التربية

في ليلة الأحد الماضي انعقد درس الاستاذ جمال الدين الافغاني وانتظم في سلكه جم غفير من نبيهاء طلبة العلم وفضلائهم وكثير من الافندية مستخدمى الدواوين ومحضر هو لادواؤولئك شنف المسماع بمقال جليل في شأن تربية الامة وما يلزم ان يسلك من سبلها ولما فيه من عظم الفائدة رغبتي في نشره في الجرائد الوطنية تمميا للفوائد وميانا لما انطوى عليه من حسن المقاصد قال مامعناه:

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية او الحيوانية او الانسانية علم ان قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالعلوية على باقىها غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلبها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسي بالمزاج المعتدل المخلص لروح الحياة فان غلب أحد العناصر على ساثرها واضطحت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ما سواه منها كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وتغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحلل الرطوبة الضرورية المتهي الى اليبس تدمير الموت والنفاء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري ليعتدوا في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويماد به المزاج الى حالة الاعتدال ان خرج عنها لثم حكمة الله تعالى في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزلية فالبايتون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والفراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لا بد منه في تربية

(١) منتونتان من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام الذي بطبع الآزوهما من أول ما كتبه

النباتات وكذلك الأطباء يبحثون عن مواد الاغذية وما ذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الأهوية ومنافعها ويقفون بتجاربهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها ولن يكون الطبيب طيبا يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبي وعلوم النباتات ليطلع خواصها، ويميز نافعها من ضارها، وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها وما يلائم كل واحد على حسبه وخبرها بعلم الامراض واسبابها وكيفيةها من شدة وضعف وتاريخها من قدم وحدوث حتى يعالج كلاً بما يليق به فان جهل من ذلك شيئاً كان قهراً خيراً من وجوده فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ تجهله يستعمل من الادوية ما عساه يهيج المرض ويمين من الاغذية ما يساعده على قسوته فيفضي ذلك الى هلاك المريض وقد كان يدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطيبة لولا مساعدة الجاهل وعونه. وكما يلزم للطبيب ان يكون عالماً بجميع ما قدمنا يجب ان يكون شقيقاً وحيماً صادقاً أميناً لا يكون قصارى عمله ما يناله من جعل المعالجة فإنه ان كان قسياً عديم الرأفة أو كان خائفاً فلربما صار آلة في أيدي اعداء المريض يستعملونه لهلاكه بإلقاء السم في الادوية مثلاً أو اهماله في العلاج بما يقدمونه اليه من المرض الفاني وكذلك ان قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم فإنه ان كان على تلك الصفة لم يكثر بحال المريض مادام يوفى أجر عمله فإن هلك فقد نال ما يزد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فقدمه أيضاً خيراً من وجوده وكان ان روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع اصول متضاربة ينشأ من تعالها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها ويخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبنة سعادة الانسان وعليها مدار حياته الفاضلة فإن تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة ربات شقيا سيء الحال وسقط في مهواة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك. ألا ترى ان النفس الانسانية

لا بد لها من خلق الجراءة وخلق الخفاة وهما متضادان ومن مقاومتها على وجه
معادل بحيث يستعمل كلاهما ليق به من المواقع تحقق فضيلة الشجاعة التي لو فقدت
بتغلب الخفاة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن
نفسه دفاعا وكانت حياته تحت خطر يهدده في جميع أوقاته ولو ان الجراءة تغلبت
على الخفاة حتى ذهب أثرها كانت تهورا وعدم اكتراث بالمهلك لحق ولنير
حق بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوي الملكة بلا طائل يعود
على نفسه أو وطنه. وكذلك لا بد من خلق الامسك والبذل وهما متخالفان متعارضان
يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء وهي البذل في موضع الاستحقاق اذا
اعتدلا ولو ان الامسك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لامسك عن قضاء لوازمه
الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية والالبسة مثلا فيضرب يده ولم يرف بحقوق
مشاركه في المعيشة كزوجته وولده أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق
بينهم ويتأدى به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفاسد البخل التي لا تنحصر ولو تغلب
البذل لأفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيرا لا يجد ما ينقذه في
أزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي واسطة لطرفين
متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر
يختل نظام الفضيلة ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ولا
يسمنا المقام لتفصيل ذلك. وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس
يقع أيضا بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المنغذية
للمنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والفرارز الناقصة وانفعال النفس
بمحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لآعمالهم وتقليدها بآاداتهم أو باستماع اغواء ذوي
الاهواء وتوجهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة المذيعين للافكار الرديئة
المؤيدين للمقائيد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة
فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهديب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها
عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما وضع الطب

ولو ازمه لحفظ صحة البدن كما بينا فالحكماء العمليون القائمون بأمر التريية والارشاد وبيان مفاسد الأخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال بمنزلة الاطباء وكما لزم للطبيب أن يكون عالما بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعمل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحاني طيب النفوس والأرواح اذ ارقى منبر الارشاد ان يكون عالما بتاريخ الامة التي قام بإرشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضا وأن يكون مطلعا على درجات ترقيا ودرجات تدنيا في جميع الازمان وان يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وانه حديث أو قديم قوي في النفوس أضعيف وما هو العلاج اللائق بكل صنف. وكانه يجب على الطبيب البدني ان يكون على علم تام بمنافع الأعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر والواقع. وكما يلزم ان يكون الطبيب شفيقارحيا صادقا أمينالا ينظر الى الدنيا ولا ينحط الى المقاصد السافلة كذلك على النصحاء والمرشدين ان يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم أولي مقاصد عالية لا يبيعون الفضيلة بمخاطم الدنيا ولا بالتقرب والتعريف الى الامراء والكبراء

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فان رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزقت بمطيين لأطباء، بأن صد على منابر النصح فيها الجهلة والاعبياء، والسفلة والادنيا، فأندرها بالعناء والشقاء، فإن المرشد الضال والنصح الجاهل ودع النفوس رذائل الاخلاق باسم انها فضائل ويفرس فيها جرائم الشر باسم انها أصول الخير ولربما كان مقصده حسنا ولا يريد الا خيرا ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ويمده عن اتخاذ وسائله فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فإن ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له ان يلججه وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستر تحمت تقع الرذيلة واعتقد ذلك ظلا ظليلا فلا يمكن المدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيرا من وجودهم وكذلك ان كان خائنا أو دنيا ينحط الى سفاسف الامور أو عدم

الشفقة والانسانية فإنه يتخذ النصيحة سبيلاً للوصول الى اغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكدرت، ارتفعت الآداب أو انحطت، صحت الارواح أو اعانت، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء يستعملونه في فساد الامة والمثيرة لقضاء أوطارهم الا وان القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أر باب الجرائد فإن كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام، والتبجيل والاجلال، واستوجبوا الشكر والتناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم وإلا استحقوا الرفض والطرود والإبعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح ان يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر ضرره على المبتلى به بل يتعداه بالسراية الى كل ما سواه

المقالة الثانية - الصناعة

قد عاد حضرة الأستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة وابتدأ حفظه يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولاً جليلة غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة الا انها نبتت فروعها في المغرب واجتثت ثمارها لغير غارسها ولم تنزل في بلادنا على كائنها واجيالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد القوة الى الفعل الا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين يجمع الى الاصول فروعها والى المقدمات نتائجها والى المجملات تفاصيلها باناً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القوية ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد جمة الثمرات للمعوم وأيت من الواجب قياماً بالخدمة الانسانية ان أودع بعضها قوالب العبارات اللاتقة بها وانشر طيب وفدها في صحف الجرائد لتعم الفائدة والله يتولى التوفيق بين حفظه الله وأثبت ان الانسان نوع من أنواع الحيوانات الارضية